وسام جبران

الفراغ بين الحُطام والإمكان

قراءة أنطولوجية في شعر أدونيس على ضوء الفيزياء المعاصرة

مقالة

الناصرة

كانون ثاني - شباط 2026

Gibran Publishing

Publishing Literature and Music Online

© 2026. All rights reserved.

الفراغ بين الحطام والإمكان

قراءة أنطولوجية في شعر أدونيس على ضوء الفيزياء المعاصرة

الفراغ بين العدم والإمكان: الخلفية الفلسفية

لم يكن مفهوم الفراغ يومًا مفهومًا بسيطًا في تاريخ الفكر الإنساني؛ بل ظلّ على الدوام نقطة توتر بين الوجود والعدم. ففي الفلسفة اليونانية المبكرة، رفض بارمنيدس فكرة الفراغ رفضًا قاطعًا، لأن العدم، في تصوره، لا يمكن أن يُفكَّر فيه أو يُنسب إليه وجود. فالوجود واحد ممتلئ، والفراغ محال منطقيًا. في المقابل، قدّم ديموقريطس وأتباعه تصورًا مغايرًا، حيث جعلوا من الفراغ شرطًا لحركة الذرات، وبالتالي شرطًا للوجود المادي ذاته. هنا لم يعد الفراغ عدمًا مطلقًا، بل مجالًا يسمح بالتشكّل.

أما في الفلسفة الإسلامية، فقد دار الجدل حول مفهوم "الخلاء" بين المتكلمين والفلاسفة. المتكلمون أجازوا وجود الخلاء باعتباره حيزًا يمكن أن يخلو من الأجسام، بينما رفضه بعض الفلاسفة المشائيين معتبرين أن المكان لا ينفصل عن الجسم. ومع ذلك، ظلّ الفراغ في هذه النقاشات مفهومًا سلبيًا، يُعرّف غالبًا بغياب الامتلاء لا بامتلاك ماهية إيجابية.

إلا أن التحوّل الحاسم في فهم الفراغ لم يحدث إلا عندما بدأ الفكر الحديث ينقله من دائرة العدم إلى دائرة الإمكان. لم يعد الفراغ مجرد نقص في الوجود، بل صار شرطًا لتجلّيه. وهنا تبدأ ملامح التحول الأنطولوجي الذي سيبلغ ذروته في الفيزياء المعاصرة.

في الفيزياء الكلاسيكية، وخصوصًا في تصور نيوتن، كان الفراغ فضاءً مطلقًا، وعاءً ساكنًا تتحرك فيه الأجسام. إنه إطار خارجي محايد، لا يؤثر في المادة ولا يتأثر بها. غير أن نظرية النسبية عند أينشتاين قلبت هذا الفهم رأسًا على عقب؛ فالفراغ لم يعد مجرد خلفية، بل صار هو ذاته نسيج الزمكان القابل للانحناء والتأثر بالكتلة والطاقة. أي أن ما نعدّه "فراغًا" يمتلك بنية هندسية فاعلة.

لكن الثورة الأعمق جاءت مع ميكانيكا الكم. فبحسب نظرية الحقول الكمومية، الفراغ ليس حالة خالية من كل شيء، بل هو أدنى حالات الطاقة الممكنة في الحقل. حتى في غياب الجسيمات المرصودة، يبقى هناك ما يسمى "التقلبات الكمومية": أزواج من الجسيمات الافتراضية تظهر وتختفي في مدد زمنية متناهية الصغر. بذلك، يغدو الفراغ مخزنًا للطاقة، حقلًا احتماليًا ينبض بالحركة، لا صمتًا مطلقًا.

إنه "لاشيء" يحمل في داخله إمكانية كل شيء.

من الفيزياء إلى الشعر

إذا كان الفراغ في الفيزياء الحديثة لم يعد عدمًا بل طاقة كامنة، فإن السؤال الذي سيقود قراءتنا لقصيدة أدونيس هو الآتي: هل الفراغ في تجربته الشعرية مجرد انهيار للمعنى، أم أنه توتر عميق يحمل في طياته إمكان التحول؟

في قصيدة "الفراغ" (ديوان أوراق في الريح)، لا يظهر الفراغ كغياب محايد، بل كقوة فاعلة: "يمدّ المدى"، "يُهيل التراب"، "يُجمّد أرضي"، "يغيّب نجمي."

إنه ليست حالة ساكنة بل طاقة تخريبية، كأننا إزاء حقل يبتلع المعنى ويعيد تشكيله في صورة تشظٍّ. وهذا ما يجعل المقارنة مع الفراغ الفيزيائي الحديث ممكنة، لا على مستوى التشابه الحرفي، بل على مستوى البنية المفهومية: كلاهما يتجاوز فكرة العدم البسيط.

من هنا، يصبح الفراغ عند أدونيس سؤالًا أنطولوجيًا لا سياسيًا فحسب، وسؤالًا وجوديًا لا بلاغيًا فقط. إنه لحظة تصدع في نسيج الوجود الجمعي، تشبه، على نحو استعاري، اضطراب الحقول الكمومية التي تسبق تشكل الجسيم.

"حطام الفراغ": من العدم إلى التشظّي البنيوي

يفتتح أدونيس قصيدته بعبارة مكثفة: "حطام الفراغ على جبهتي".

اللافت أن الفراغ لا يظهر بوصفه حالة سكون أو غياب، بل بوصفه شيئًا قابلاً للتحطّم. والحطام لا ينتج عن العدم، بل عن انهيار بنية قائمة. هنا يتبدّى أول انزياح دلالي: الفراغ ليس فراغًا خالصًا، بل هو امتلاء سابق تحوّل إلى شظايا.

في ضوء الفيزياء الحديثة، يمكن فهم هذا التصوير بوصفه استعارة قريبة من فكرة "اضطراب الحقل". فالفراغ الكمومي ليس سكونًا، بل أدنى مستويات الطاقة في الحقل؛ وعندما يضطرب هذا الحقل تظهر جسيمات افتراضية، كأن البنية العميقة للواقع تتشظّى لحظيًا. إن "الحطام" عند أدونيس يشبه حالة انهيار استقرار الحقل، لا غيابه.

فالفراغ في القصيدة فاعل: "يمدّ المدى"، "يُهيل التراب"، "يُغلغل في خطواتي ظلامًا". إنه قوة دينامية تتسلل إلى البنية النفسية والوجودية للذات. وهذا يقارب ما تسميه الفيزياء "طاقة الفراغ"؛ طاقة لا تُرى مباشرة، لكنها تؤثر في سلوك الجسيمات وفي تمدد الكون ذاته (كما تشير بعض نماذج الطاقة المظلمة). الفراغ، إذًا، ليس محايدًا، بل له أثر في البنية الكلية.

يقول أدونيس:

"هنا، في عروقي، صدىً للجفاف

ودمدمةٌ وصريفُ

هنا، في دمي يولد الخريفُ".

نحن هنا أمام انتقال الفراغ من المجال الخارجي إلى المجال الحيوي الداخلي. إنه لم يعد فضاءً جغرافيًا أو سياسيًا فحسب، بل صار حقلًا يسري في الدم. هذا التحول يوازي – على نحو استعاري – فكرة أن الحقول الكمومية ليست خارج المادة، بل هي البنية الأساسية التي تتكوّن منها الجسيمات ذاتها. الجسيم ليس إلا اهتزازًا في الحقل؛ وكذلك الإنسان في القصيدة يبدو اهتزازًا في حقل الفراغ.

والخريف الذي "يولد في الدم" ليس موتًا نهائيًا، بل طورًا انتقاليًا. في الفيزياء، التقلب الكمومي ليس فناءً، بل تغيرًا لحظيًا في توزيع الطاقة. كذلك الفراغ الأدونيسي لا يلغي الحياة، بل يحوّلها إلى حالة انتظار متوتر.

*

العبارة المحورية: "ويجعلنا كالفراغ"، تشير إلى تحول الوجود البشري ذاته إلى حالة تشبه الحقل الكمومي في أدنى طاقاته: إمكان بلا تحقق، طاقة بلا تجسّد. إن الذات لم تعد مركزًا متماسكًا، بل فضاءً من التشققات.

في الفيزياء الكلاسيكية، كان يُفترض أن الأجسام كيانات صلبة ومستقلة. لكن في الفيزياء الحديثة، لم يعد هناك "جوهر" ثابت، بل تفاعلات حقول. هذه الرؤية تفتح أفقًا لقراءة أدونيس: الإنسان في زمن الفراغ ليس ذاتًا جوهرية، بل عقدة توتر في شبكة تاريخية منهارة.

فالفراغ هنا ليس عدم الهوية، بل تفكك البنية التي تمنح الهوية تماسكها.

الفراغ والزمن المعطّل: انقطاع الاستمرارية

يقول أدونيس: "فراغ زمان بلادي فراغُ".

هذه الجملة تمثل ذروة التحول الأنطولوجي في النص. الفراغ هنا لم يعد مكانيًا ولا نفسيًا فحسب، بل صار زمنيًا. أي أن السردية التاريخية انقطعت. الزمن ذاته فقد طاقته الدافعة.

في علم الكونيات المعاصر، يُنظر إلى الفراغ بوصفه مرتبطًا ببُنية الزمكان. فإذا اختلّت طاقة الفراغ، يتأثر تمدد الكون. إن ما يفعله أدونيس هنا شبيه بتعطيل "تمدّد التاريخ": الفراغ يوقف حركة الزمن كما لو أن الحقل فقد توازنه.

لكن، كما أن تقلبات الفراغ الكمومي قد تُنتج جسيمًا، فإن هذا التعطيل في القصيدة يمهّد لنداء الثورة في القسم الأخير. الفراغ ليس نهاية، بل حالة حدّية.

الفراغ كحالة حدّية: بين الانهيار والانبعاث

عندما يختم الشاعر بنداء: "ألا ثورةٌ في الصميم..."، فإنه لا يخرج من الفراغ، بل يستدعي من داخله إمكانًا جديدًا. وهنا تبلغ المقارنة الفيزيائية ذروتها: في بعض النماذج الكونية، يُفترض أن الكون ذاته قد نشأ من تقلب كمومي في الفراغ البدئي. أي أن الوجود خرج من توتر الحقل لا من العدم المطلق.

الفراغ عند أدونيس يشبه هذه اللحظة الحدّية: حالة طاقة مكبوتة، كثافة توتر، تشظي معنى؛ لكنها أيضًا عتبةُ خَلْقٍ.

الفراغ بوصفه انهيار البنية التاريخية

في المقاطع الوسطى من القصيدة، يتكثف حضور الفراغ في صور حضارية واضحة:

"فراغٌ زمانُ بلادي فراغُ

وتلك المقاهي

وتلك الملاهي

فراغُ"

هنا يتحول الفراغ إلى توصيف شامل للحياة العامة: الزمن، الفضاء الاجتماعي، العلاقات، حتى الرموز الوطنية. إننا أمام ما يمكن تسميته بـ "انهيار البنية الدلالية". الأشياء ما زالت موجودة ماديًا، لكن معناها مستنزَف. وهذا يتجاوز البعد السياسي المباشر إلى مستوى أنطولوجي: العالم يفقد قدرته على توليد المعنى.

في الفيزياء، حين يفقد الحقل استقراره الأدنى (ground state) يدخل في حالة انتقال طوري(phase transition) ، أي يتحول من بنية إلى أخرى عبر لحظة اضطراب قصوى. يمكن استعارة هذا المفهوم لفهم ما يحدث في القصيدة: الفراغ ليس سكونًا، بل علامة على أن البنية القائمة لم تعد قادرة على الاستمرار في شكلها السابق.

إنه لحظة "لا-استقرار" تاريخي.

*

إذا كان الفراغ في الفيزياء الحديثة يحمل طاقة، فإن هذه الطاقة، وفق بعض نماذج علم الكونيات، تسهم في تمدّد الكون المتسارع (الطاقة المظلمة). أي أن الفراغ لا يضغط نحو الداخل، بل يدفع نحو التباعد.

في قصيدة أدونيس، نجد صورة مشابهة على المستوى الرمزي: "تبعد عنّي، تبعد شمس المصير، وتنأى". الفراغ هنا لا يدمّر فقط، بل يُباعد. إنه يخلق مسافات بين الإنسان ومصيره، بين الشعب وهويته، بين الحاضر والمستقبل. إنه تمدّد سلبي للعدم داخل النسيج الاجتماعي.

كما أن الطاقة المظلمة غير مرئية لكنها تؤثر في حركة المجرات، فإن الفراغ الأدونيسي غير مرئي مباشرة، لكنه يتحكم في مسار الجماعة. الحقد، الملل، الاستكانة؛ كلها تجليات لفراغ يعمل في العمق.

الفراغ كعقم كوني: أزمة المعنى والعبادة

في المقطع الرابع، يبلغ الفراغ ذروته الأنطولوجية: "لمن جيلُنا يحرق البخور؟ / لمن يسجدُ؟ / وأيّ إلهٍ تُرى يعبدُ؟"

لم يعد السؤال سياسيًا، بل ميتافيزيقيًا. الفراغ هنا هو غياب المركز المرجعي. لا إله واضح، لا غاية، لا وجهة. وهذا يقارب ما يسميه بعض الفلاسفة المعاصرين "موت المركز."

في الفيزياء أيضًا، لم يعد هناك مركز للكون؛ لا نقطة امتياز مطلقة. الكون يتمدد في كل الاتجاهات دون مركز محدد. هذه اللامركزية الكونية تجد صداها الرمزي في القصيدة: لشعب بلا مركز روحي أو حضاري.

لكن اللافت أن أدونيس لا يكتفي بوصف العقم، بل يجعله حالة حدّية: "تكاد، على عقمه، الآلهة/ تَعافُ قرابينَه الوالهة"

حتى المقدّس ينسحب. كأن البنية الرمزية فقدت قدرتها على الامتلاء، تمامًا كما أن الحقل إذا فقد طاقته التنظيمية يصبح عرضة للاضطراب.

الثورة بوصفها تقلبًا كموميًّا في التاريخ

عندما يصل النص إلى نداء: "ألا ثورةٌ في الصميم تُنشّئنا من جديد/ وتمحق فينا هوان العبيد؟"

لا تبدو الثورة قفزة خارج الفراغ، بل انفجارًا من داخله. إنها ليست استيرادًا لقوة خارجية، بل إعادة ترتيب للبنية في أعمق مستوياتها؛ "في الصميم."

في نظرية الحقول، يمكن أن يؤدي اضطراب صغير في الفراغ إلى نشوء جسيم فعلي؛ أي أن الإمكان الكامن يتحول إلى تحقق. وبالاستعارة ذاتها، فإن الثورة عند أدونيس ليست فعلًا خارجيًا، بل تحقق لطاقة مكبوتة داخل الفراغ الجمعي.

هنا يتغير معنى الفراغ: لم يعد حطامًا فقط، بل صار مخزونًا للانبعاث.

*

إذا جمعنا الخيوط السابقة، نجد أن الفراغ عند أدونيس يمر بثلاث مراحل:

فراغ تشظّي (حطام، ظلام، جفاف).

فراغ تعطيل (زمن معطّل، هوية متآكلة).

فراغ إمكان (ثورة في الصميم).

وهذه البنية الثلاثية تذكّر بالبنية الكونية في بعض النماذج الفيزيائية: حالة استقرار / اضطراب / بنية جديدة.

إذن، الفراغ في القصيدة ليس عدمًا مطلقًا، بل طورًا انتقاليًا بين عالمين. إنه "الحدّ الصّفريّ" الذي يسبق إعادة التشكُّل.

يتقاطع الفراغ عند أدونيس مع مفهوم الفراغ في الفيزياء المعاصرة في ثلاث نقاط جوهرية:

كلاهما يتجاوز فكرة العدم السلبي.

كلاهما يُفهم كحقل متوتر لا كسكون.

كلاهما يحمل إمكان التحوّل البنيوي.

لكن الفرق الجوهري أن الفيزياء تصف بنية كونية، بينما أدونيس يكشف بنية تاريخية-وجودية. ومع ذلك، فإن البنية المفهومية المشتركة، الفراغ كطاقة كامنة، تتيح لنا قراءة الشعر بوصفه تفكيرًا أنطولوجيًا موازيًا للعلم، لا تابعًا له.

خاتمة

في ضوء ما تقدّم، يتّضح أن الفراغ في قصيدة أدونيس لا يُفهم بوصفه حالة خارجية أو توصيفًا سياسيًا عابرًا، بل بوصفه بنية إدراكية وأنطولوجية تسكن الوعي ذاته. فعندما "يمتدّ في ناظريه سرابًا"، يصبح الفراغ نمط رؤية قبل أن يكون موضوعًا مرئيًا؛ أي إنه خلل في علاقة الذات بالعالم، حيث تفقد الأشياء كثافتها الدلالية وتتحول إلى صور بلا جوهر. ومن هنا يتجاوز الفراغ حدود المكان والزمن ليغدو حقلًا جمعيًا تتوزع فيه طاقات الحقد والملل والاستكانة، كما تتوزع الاضطرابات في الحقول الفيزيائية حين تفقد انتظامها. غير أن هذا الحقل المتشظي لا يعني العدم المطلق، بل يدلّ على حالة حدّية من التوتر القصوى، شبيهة، على نحو تأويلي، بما تصفه الفيزياء المعاصرة في فهمها للفراغ بوصفه أدنى حالات الطاقة وأكثرها قابلية للتحول. فالفراغ الكمومي ليس خواءً، بل مخزون إمكان؛ وكذلك الفراغ الأدونيسي ليس نهاية التاريخ، بل لحظة ما قبل إعادة تشكّله. من هنا يغدو نداء الثورة في القصيدة فعلًا لإعادة تنظيم الوعي قبل أن يكون فعلًا سياسيًا؛ إنه محاولة لإعادة إنتاج المعنى داخل الحقل الجمعي، وتحويل الطاقة السلبية إلى قوة خلق. وبهذا المعنى، يلتقي الشعر بالفيزياء لا في التفاصيل العلمية، بل في البنية المفهومية العميقة: كلاهما يكشف أن"اللاشيء" ليس عدمًا، بل توترًا كامنًا، وأن الانهيار قد يكون الشرط الضروري للانبثاق. وهكذا يتحول "حطام الفراغ" من علامة على السقوط إلى توصيف للحظة تكوينية، حيث يقف الوجود على تخوم العدم، لا ليتلاشى، بل ليعيد ابتكار نفسه.